عِظات عالية وحِكَم غالية نتدبّرها من قصّة أسرة سيّدنا إبراهيم في تسليمها ورضاها للأحكام الإلهية المقضية

2022-06-03

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً، وقضى بما يريد حِكمة وحُكماً، فسبحانه من إله أَرَادَ فَقَدَّرَ، وَمَلَكَ فَقَهَرَ، وَخَلَقَ فَأَمَرَ، وَعُبِدَ فَأَثَابَ وَشَكَرَ، وَعُصِيَ فَعَذَّبَ وَغَفَرَ، جَعَلَ مَأْوَى الطَّائِعِينَ جَنَّاتٍ وَنَهَرًا، وَمَصِيرَ الْكَافِرِينَ سَقَرَ. وَنَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، أبدع الكون بقدرته، وشمل العباد برحمته، وسوّى خلقهم بحكمته، ونَشْهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ، وصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وخَلِيلُهُ، كان خير الناس لأهله، وأجمع العباد لشمله،

يا أُمّةً لنبيٍّ نُورُهُ سَطعَا * وعَزَّ مِقداره في المجد وارتفَعَا
كم سَدّ فاقةَ محتاج وكم نَفعاً * هذا الذي بالهدى والدِّين قد صَدعَا
صلُّوا على المصطفى يا كلَّ مَنْ سَمعَا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. وعلى آله المتشرِّفين بقرابته. وصحابته الباذلين أنفسهم وأموالهم من أجل محبّته. صلاة ترزقنا بها العملَ بشريعتِه. وموافقةَ سُنّتِه. وتجعلنا بها يا مولانا في مثل هذه الأيّام من الواقفين على أعتاب حضرته. المتمتّعين بالنظر إلى جميل طلعته. واجعلنا في الآخرة مِمَّنْ يحظى بشفاعته. ويُكرَم بجواره مع خالص أحبّته. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لنا أن نتساءل: لماذا جعل الله تعالى في كل عام أوقاتاً عظيمة نُشرِّف فيها أسماعنا بسماع قصة سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. ونُمتِّع عقولَنا بفهم الحِكَم العظيمة التي من أجلها أوجب الله عزّ وجلّ علينا أن نتذكّر في هذه المواطن والأيام سيّدنا إبراهيم وابنه إسماعيل وزوجه هاجر عليهم السلام أجمعين. لماذا؟ نعم. حِكَم كثيرة. وعِبَر عظيمة. ومنافع جَمّة. لا نستطيع أن نحيط بها في هذا الوقت القصير. وإنما الأمر كما يقول الإله العليّ الكبير. في سورة يوسف:((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)). ليست

روايات وحكايات نسمعها على سبيل التسلية. ولكنها عظات عالية. وحِكَم غالية. وآيات آلهية راقية. علينا أن نتدبّرها ونعيها. ونفهمها في هذا الوقت. حتى يكرمنا الله كما أكرمهم. وحتى يعمّنا الله بالفضل الكبير الذي عمّهم به. وبالأجر العظيم الذي وعدهم به. وبالثواب الجزيل الذي دّخره لهم المولى عزّ وجلّ عنده. ونحن في أيام الحج إلى بيت الله الحرام. عبرة واحدة نحاول أن نفهمها. ونأخذ بها أنفسنا. أيّها المسلمون. كل واحد منّا يحاول أن يعمل لأولاده ما ينفعهم في الدنيا. فالذي يسافر ليحضر لهم الفلوس. والذي يتاجر ليعمل لهم بيوتاً وعقارات. والذي يجري هنا وهناك. كل هذا لماذا؟ هو لا يريد شيئاً لنفسه. ولكنه يريد أن يعمل لأولاده حاجة تنفعهم في الدنيا. والكل يعتقد تمام الإعتقاد أنَّ مَن يفعل ذلك هو الناصح في دنياه. الشفوق العطوف على أبنائه وولاياه، السعيد في نظر خَلْق الله. وكلّنا لا يشك في هذا الكلام. وهذا الكلام صحيح. لكن الأصح منه أن نتأسّى بأنبياء الله ورسل الله. وعلى رأسهم خليل الله عليه السلام. ماذا أفعل؟ عاش ثمانين عاماً لم يرزقه الله فيهم بغلام. فلم ييأس من فضل الله. ولم يقنط من رحمة مولاه. بل كان دائماً وأبداً منتظراً لفرج الله، وانتظار الفرج عبادة. أخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((إنتظار الفرج من الله عز وجل عبادة، ومَن رضي بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل))، وأخرج الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((سلوا الله من فضله. فإنّ الله يحب أن يُسأل من فضله. وأفضل العبادة إنتظار الفرج)). وهذا الإنتظار عبادة يثيبه عليها العزيز الغفار، عبادة ليس فيها عمل ولا تعب ولا إنفاق. إلا أنه يحرّك قلبه بالحنان والعطف والإشفاق. إلى الملك الخلاّق. يستمطره الرحمات. وينتظر منه المكرمات. لأنه وحده سبحانه وتعالى الذي بيده مقاليد السموات والأرض. وهو على كل شئ قدير. أيّها المسلمون. أكرم الله سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام بالولد بعد ثمانين عاماً. ولم يتركه يفرح به لوقت طويل. بل أمَره على الفور بأن يُلقي به في صحراء ليس فيها زرْع ولا ضرْع ولا ماء. ولا فيها حتى وحوش. لأنّ الوحوش لا تسكن إلا المكان الذي فيه قوتهم وفيه شرابهم. وهذا مكان ليس فيه قوت لحيّ. ماذا

يفعل؟ هل اِعترض على أمْر الله؟ هل شعر في نفسه بأنّ هذا الحُكم الذي حَكم به عليه الله قاس؟ هل ناوَأ الله وقال كما نسمع من عباد الله: لماذا يفعل الله معي هذا؟ ولماذا حَكم الله عليّ بهذا الحُكم؟! ولِمَ خصّصني وأمرني بهذا العمل؟ هل مثل هذا الكلام يَنفع مِن العبد مع سيّده ومولاه؟؟! قال تعالى في سورة القصص:((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)). فإذا قضى أمراً فعلينا بقوله كما في سورة الأحزاب:((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)). فكل أمْرٍ أمَر به الله لا يجوز للمؤمن أن يختار بعد أمْر الله. ولا يجوز للمؤمن أن يعترض على ما قضاه الله. ولا يجوز للمؤمن أن يُظهر حتى بقلبه الجزع أو الهلع. أو الضيق في الأمر الذي أبرمه الله. ولكن عليه أن يرضى بأمْر الله. وأن يُسلِّم لقضاء الله. وأن يُفوِّض كل أموره لله. فإذا لم يرضى ماذا يكون له؟ وإذا رضيَ ماذا يكون له؟. أخرج الترمذي في سننه. وابن ماجة والبزّار وصاحب الفتح الكبير عن أنس بن مالك رضي الله عنه. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:((إنَّ عِظمَ الجزاءِ مع عِظمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم، فمَن رَضي فله الرِّضَى، ومَن سخِط فله السَّخطُ)). أيّها المسلمون. فسيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام رضيَ. وعلّم زوجته الرضا. حتى إنه تركها مع ولدها وليس معهما إلا جِراب بسيط فيه بِضع تمرات. وآخَر فيه جرعة ماء. فنظرت إليه وقالت: يا إبراهيم لمَن تتركنا ها هنا؟ فلم يُجبها. وآثَر الصمت والسكوت. فكرّرت القول: يا إبراهيم لمَن تتركنا ها هنا؟ فلم يلتفت ولم يردّ. فقالت: أألله أمَرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا. لأنها على يقين أنّ الرزّاق هو الله. لمّا اطمأنّت ورضيَت وسلّمت لأمْر الله. فرح إبراهيم الخليل. ودعا الله الجليل. كما في محكم التنزيل. من سورة إبراهيم:((رَّبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)). فأول ما بدأ هذا الدعاء قال فيه:((رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)). ثم عاد إلى تكراره في آخِر الدعاء حيث قال:((رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى)). لماذا كرّر مرة ثانية دعوة إقامة الصلاة؟ لأنه قانون الله الذي حَكم به في كتابه. قال للمؤمنين الذين يحرصون على أبنائهم بعد انتقالهم من هذه الحياة. كما في سورة

النساء:((وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ)). ماذا يفعلوا يا رب؟ :((فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا))، أمريْن اثنيْن: يتّقوا الله. ويقولوا الأقوال السديدة. التي تسدَّد لهم في خانات حسناتهم. وفي صُحف إيمانهم. حتى تنتفع بها ذريّاتهم بعد مماتهم. أيّها المسلمون. إذاً الأمر على عكس ما يقول الناس. فالذي يَنفع الأبناء على التحقيق ليست وديعة البنوك. ولكن الوديعة التي ادّخرتَها عند ملك الملوك. سبحانه وتعالى. حتى أنّ الله سخّر نبيّاً من أولي العزم ووليّاً من كُمّل الأولياء. من أجل بناء الجدار. مع أنّ هذه البلدة لم يَستضفهم أحدٌ من أهلها حتى على شربة ماء. ولمّا قال سيّدنا موسى: كيف نعمل لأناس لم يضيّفنا منهم أحد؟ أجابه: نحن مكلّفون بهذا العمل من الله. لأجل هذيْن الغلاميْن. ((وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ))، أبوهم هذا كان الجَدّ السابع. وليس الأب المباشر ولا الذي بعده. ولكن الجد السابع كان صالحاً. فنفع الله به ذريّته من بَعده. وسخّر لهم رسولاً ووليّاً ليقيما الجدار. وليحفظ هذا الكنز. حتى يبلغ الصبيان فضلاً من الله ونعمة. أيّها المسلمون. فسيّدنا إبراهيم عليه السلام علّمنا هذا الدرس بأنّنا ندعو لهم بالصلاح. ونهتمّ في أمرهم بأمر الله. ونسوقهم إلى الطاعات. ونعرّفهم التشريعات. ونبيّن لهم أحكام كتاب الله. ونوضّح لهم سنّة سيدنا ومولانا رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ثم نطمئنّ إلى أنّ عناية الله لن تتخلّف عنهم طرفة عين. ولكن هناك شياطين الإنس يشكّكون في هذه الأمور. ويقولون: كيف تأتي تقوى الله بالأرزاق؟ وكيف تأتي الحسنات بالخيرات؟ مع أنّ الله عزّ وجل{ أبرم هذا الأمر. فقال في سورة الطلاق:((وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)). حتى لا يفكّر بأنّ الحُسبة التي حسبها. أو الرصيد الذي تركه في البنك. أو في الأرض أو في التجارة. هي التي تنفعه. فذلك كله يقول فيه القائل:

ما بين طرْفةِ عينٍ وانتباهتِها * يُبدِّل الله من حالٍ إلى حالْ

ولكي يزيدنا الله يقيناً. ذَكر لنا ما فعله مع الخليل وزوجته وابنهما. فقد بعث لهم الماء. وأرسل لهم الناس. وهيّئ لهم الجيران الذين يزورونهم ويودّونهم من كل أنحاء العالم إلى يوم القيامة. وصدق الله إذ يقول في سورة طه:((وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ

نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ)). اللهم فقّهنا في الدين، وعلّمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، واجعلنا من عبادك الفائزين، اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً. وقلباً خاشعاً. ولساناً ذاكراً. وعملاً صالحاً متقبَّلاً غير مردود، اللهم طهّر قلوبنا من النفاق. وأعمالنا من الرياء. وألسنتنا من الكذب. وأعيننا من الخيانة. إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ